الفصل السادس والعشرون

سفر الرؤيا والليتورجيا

الأب يوسف فخري

مقدمة

يتحدّث صاحب الرؤيا في مقدمة كتابه عن دعوته النبويّة والأصل الإلهي لسفره فيقول ما حرفيته: «وكنت في الروح في اليوم السيّدي (أي أنه اختطف بالروح يوم الأحد ـ يوم الربّ) (رؤ ١: ١٠). هذا يعني أن الوحي الذي ينقله إلينا يوحنا له طابع إلهي يفوق الطبيعة. أمسك به الروح يومَ الربّ، ففهم الحقائق السماويّة واختبر هذا «اليوم العظيم» الذي تلتقي فيه الجماعةُ المسيحيّة للاحتفال بعشاء الربّ، وتصنع تذكار موته وقيامته ومجيئه النهيوي. هذه المعطيات الليتورجيّة التي يذكرها يوحنا، تُلبس سفر الرؤيا ثوباً ليتورجياً وتُفهمنا أن هذا السفر كتب في إطار ليتورجي وانطبع بطابعه.

فسفر الرؤيا، ليس كتاب الأشباح والعجائب والغرائب، بل كتاب الصلاة والعبادة ونشيد المدح والشكر للكائن الأزلي الجالس على العرش وللحمل. وهذه الصلوات والليتورجيّات ليست فرديّة، بل جماعيّة، فنسمع صوت صلوات الجماعة تسبّح الربّ المثلث التقديسات (رؤ ٤: ٨)، كما نسمع الجماعة أيضاً تنهي الاحتفال فتقول: «آمين، ماراناتا، تعال أيها الربّ يسوع» (٢٢: ٢٠).

من هنا نرى، أن سفر الرؤيا يتضمّن أقوالاً ليتورجيّة ونكتشف فيه تلميحات ومفردات وتعابير مستعارة من ليتورجيات أخذت بها الكنيسة الأولى في القرن المسيحيّ الأول. سنحاول أن نكتشف العناصر الليتورجيّة في سفر الرؤيا. الصور والكلمات، التعاليم والممارسات، وهكذا نتعرّف إلى الحياة الليتورجيّة للكنيسة الأولى. سنتوقّف على الرسائل إلى الكنائس السبع (ف ٢ ـ ٣)، على العبادة

الليتورجيّة في (ف ٤ ـ ٥) وعلى نهاية الاحتفال وإعلان حضور الله الدائم معنا (ف ٢٢).

ولكن قبل الدخول في هذه التفاصيل، لا بدّ من طرح السؤال التالي: ما هي الأسباب التي حدت بسفر الرؤيا أن يلبس هذه الحلّة الليتورجيّة؟ للإجابة على ذلك، لا بدّ من العودة إلى البيئة التاريخيّة التي كتب فيها هذا السفر والوقوف على الأحداث التي واجهتها الكنيسة الأولى: الاضطهادات وعبادة الامبراطور وشهادة الكلمة والدم.

١ ـ عبادة الأمبراطور وعبادة الربّ

إن الزمن الذي كُتب فيه سفر الرؤيا، طغى عليه تأليه القيصر والأباطرة الرومان. فيوليوس قيصر (مات في آذار سنة ٤٤ ق.م.) رُفع إلى مصاف الآلهة بقرار من مجلس الشيوخ، وأصبح «الإله السامي Deus Augustus». وفي السنة ٢٩ ميلاديّة، سُجّل الامبراطور أغوسطس على لائحة آلهة الرومان وهو لم يزل حياً، ونقش على قطع النقد هذه العبارة «إبن الله المعبود». والامبراطور دوميسيانوس سمّى نفسه «الربّ والإله Dominus et Deus». وفي نهاية القرن الأول، حاولت السلطات الرومانيّة أن تفرض على كل الأمبراطوريّة الرومانيّة وخاصة على مقاطعة آسية، عبادة الأمبراطور، فواجه المسيحيون هذا التحدّي بالشهادة وبالعبادة للإله الواحد الحقيقيّ والسجود للحمل الذبيح المنتصر على الموت، إذ لا مساومة بين يسوع والامبراطور، وبين الحقّ والباطل. وسفر الرؤيا يحمل في طياته نصوصاً تُخبر عن مقاومة المسيحيين لهذه العبادة المزيّفة للأمبراطور ولليتورجيّته الكاذبة (مثلاً: «الأحياء الأربعة... ينشدون: قدوّس، قدوّس، قدوس الربّ الإله القدير الذي كان والكائن والآتي» ٤: ٨؛ راجع ٤: ١٨؛ ٥: ٩ ـ ١٠).

سفر الرؤيا يندّد بهذه العبادة التي هي ليتورجيّة معادية للمسيح (أنتيكريست). فمقابل هذه العبادة الباطلة، هناك ليتورجيّة الحمل التي تخدمها الأبكار الذين ما تدنّسوا بالنساء (لم يزنوا، أي لم يعبدوا الأوثان) (رؤ ١٤: ١ و٤). هكذا رفض يوحنا تأليه الأباطرة الذين نصّبوا نفوسهم «كيريوس» وطالبوا بشعائر العبادة

لشخصهم. وهكذا رفض سفر الرؤيا الليتورجيّات المزيّفة وآلهتها وعبّادها.

٢ ـ الرسائل إلى الكنائس

يقدّم لنا سفر الرؤيا في القسم الأول رسالة موجّهة إلى سبع كنائس في آسية الصغرى (ف ٢ ـ ٣) (تركيا حالياً). إنها جماعات حقيقيّة تصارع الاضطهاد والموت والخطيئة لتتعرّف إلى القداسة. سبع كنائس موقعها على طريق البريد الرئيسيّة، ولكن عندما نرى الرقم سبعة، نتنبّه إلى أن يوحنا يتوجّه من خلال هذه الكنائس إلى الكنيسة الجامعة المتجسّدة في التاريخ.

فكل رسالة من هذه الرسائل السبع مبنيّة بحسب تصميم واحد: تسمّى الكنيسة باسمها ويُذكر المسيح مع لقب من ألقابه، ثم يبدأ بفحص ضمير الكنيسة فيكشف فضائلها ونقائصها ويدعوها إلى التوبة، وأخيراً يعد المنتصر بعطيّة خاصة. ففي هذه العطايا التي يعد بها المسيح المنتصرين، نكتشف عدداً من التلميحات الليتورجيّة التي تخفي بُعداً هاماً من أبعاد حياة الكنيسة.

إن الجماعة المسيحيّة الأولى، واجهت عبادة الامبراطور وآلهته بليتورجيّة صادقة للكائن الأزلي، وهذه الليتورجيّة كانت العضد الأمين لمجابهة الاضطهادات وللتعبير عن الإيمان الصادق وانتظار مجيء الربّ. وراء هذه الليتورجيّة يختفي وجه الكنيسة المصليّة والمتعبّدة والصامدة في وجه الاضطهادات والعبادات الانتكريستيّة.

يعاتب الربّ كنيسة أفسس (رؤ ٢: ٤ ـ ٥) لأنها تركت حبّها الأول. لم يعد تكرّسها تاماً، بل صار إيمانها منقسماً وأمانتها متزعزعة وبدأت تساوم بعد معاشرتها لهؤلاء «الكاذبين». إن عدم أمانتها للربّ، قد جسّد من جديد سقطة آدم الأولى في الفردوس، فقطعت مع الربّ علاقة «الحبّ الأول»، ولكن إن تابت وعادت إلى هذا الحبّ، يُسمح لها بالدخول إلى الفردوس من جديد والأكل من شجرة الحياة (٢: ٧) (راجع رؤ ٢٢: ١٤: «طوبى للذين يغسلون حللهم لينالوا السلطان من شجرة الحياة ويدخلوا المدينة من الأبواب» إن عبارة «يغسلون حللهم» تدلّ على الشهداء الآتين من الاضطهاد [راجع رؤ ٧: ١٤]، فهؤلاء هم الغالبون).

فماذا تعني شجرة الحياة في الرؤيا؟

يقول الروح: «الغائب سأطعمه من شجرة الحياة التي في فردوس الله» (رؤ ٢: ٧). كلمة «غالب» (المنتصر) ترد ١٧ مرة في الرؤيا. لسنا أمام غلبة بالسيف، بل غلبة بالكرازة والاستشهاد، غلبة الاحتمال والإيمان، فالغالب سيتنعّم بثمرة شجرة الحياة. إن هذا القول ليس بغريب عن الفكر البيبليّ، «فعهد لاوي» (فصل ١٨) الذي يتحدّث عن الزمن المسيحانيّ يقول: «سيفتح المسيح الكاهن الأعظم أبواب الفردوس ويسمح للقديسين بأن يأكلوا من شجرة الحياة». و«الكتاب الأول لأخنوخ» (١ أخنوخ ٢٥) يشرح رؤيا الجبال السبعة والشجرة. فالجبل السابع هو العرش الذي سيجلس عليه الربّ في يوم الدينونة الأخيرة، أما «الشجرة العطرة» فلا يستطيع أحدٌ أن يمسّها قبل يوم الدينونة، كما لن تُعطى إلّا للأبرار والمتواضعين والمختارين فيأكلون منها وينالون الحياة.

إن الإيمان اليهوديّ يرى في هذه الشجرة تحقيقاً للزمن المسيحانيّ الاسكاتولوجيّ إذ كانوا يعتقدون أن المسيح سيعيد اليهود إلى الفردوس في آخر الأزمنة ليتنعّموا بثمار شجرة الحياة.

فصاحب الرؤيا يعرف جيداً هذه الصورة وأبعادها في العالم اليهوديّ، فما وعدت به النصوص البيبليّة عن شجرة الحياة، يراه صاحب الرؤيا قد تحقّق في زمن المسيح. فكنيسة أفسس التي كانت تتنعّم بشجرة الحياة في الأمس، يمكنها اليوم أن تعود بالتوبة إلى الفردوس. وهناك نصوص مسيحيّة تعود إلى القرون الأولى تتحدّث عن العودة إلى الفردوس والتنعّم بشجرة الحياة بواسطة المعموديّة. «فرسالة برنابا» (٦: ١١) تتحدّث عن العماد كخلق جديد وتقول: «من يأكل يحيا إلى الأبد» (١١: ٩)، تلميح إلى (تك ٣: ٢٢)، فالمعمّد ينتقل إلى الفردوس من جديد ويأكل من الثمرة التي حُرم منها آدم. وهناك «موشّحات سليمان» (١١: ١٦ ي) التي تنشد العودة إلى الفردوس بواسطة المعموديّة: «لقد أعادني (الربّ) إلى الفردوس... فقلت له: مباركُ الذين زُرعوا في أرضك ولهم مكان في فردوسك». كل هذه النصوص المسيحيّة (التي تعود إلى القرون الأولى) تتحدّث عن هذه العودة إلى الفردوس بواسطة المعموديّة. فاستناداً إلى هذه المعطيات، يمكننا القول بأن الروح يتحدّث إلى كنيسة أفسس على الشكل التالي: «أنت عرفت السقطة الأولى فتُب وعُد إلى الفردوس تجد ثمار شجرة الحياة».

هذه الشجرة (حرفياً: خشبة الحياة) هي إشارة إلى (تك ٢: ٩) ووعد بالعودة إلى الحياة الخالدة في الفردوس، هذه الشجرة التي تعطي الحياة هي سرّ الافخارستيا كما يقول يسوع: «أنا هو خبز الحياة... من يأكل من هذا الخبز يحيا إلى الأبد» (يو ٦: ٤٨ ـ ٥١) توبة ـ معموديّة (عودة إلى الفردوس) ـ الأكل من شجرة الحياة (الافخارستيا).

ويعد المسيح إزمير بـ«إكليل الحياة» (رؤ ٢: ١٠ ب ـ ١١). فماذا تعني هذه العبارة؟ اشتهرت إزمير بعبادة إيزيس وأفروديت وخصوصاً سيبيل التي كانت تحفر صورتها على العملة المعدنيّة مزيّنة «بإكليل». وكان شرف كبير للأبطال الظافرين أن يأخذوا «إكليل» النصر في إزمير. فالمنتصر يحصل على إكليل النصر (راجع ١ كور ٩: ٢٥؛ ١ بط ٥: ٤؛ يع ١: ١٢). فهذا الإكليل يرمز إلى المجد والظفر. ففي كتاب «صعود أشعيا» المنحول، يرى النبيّ أشعيا في السماء السابعة ثياباً وعروشاً وأكاليل معدّة للذين أحبّوا الحبيب، ولن يحصلوا على هذه الأكاليل إلّا عندما يرتفع المسيح ويرتفع معه هؤلاء المؤمنون (صعود أشعيا ٩: ١٧). ويوجد تقليد قديم في الكنيسة الأولى وهو أنه كان يوضع على رأس المعمّد الجديد إكليل. فموسى بركيفا السرياني يقول: «إن إكليل المعمّدين يدلّ على أن المعمّد الجديد أصبح الإبن الروحيّ للآب السماوي وأخاً ليسوع». هذا التقليد الليتورجيّ حفظته الكنيسة السريانيّة القديمة، إذ كان يوضع على رأس المعمّد الجديد إكليل كما تقول «موشحات سليمان»: «للذين لبسوا نعمة الربّ وعادوا إلى الفردوس، ليجدلوا أكاليل من شجرته ويضعوها على رؤوسهم» (٢٠: ٧ ـ ٨).

باختصار، إن «إكليل الحياة» يرمز إلى الخلاص المعدّ للمختارين، وهذا الخلاص قد تمّ في سرّ المعموديّة الذي ينال فيه المعمّد الغلبة والنصر ويفوز بإكليل الحياة.

ونقرأ وعد يسوع لكنيسة برغامس: «من غلب أعطيته المنّ الخفيّ وحصاة بيضاء، منقوشاً فيها اسم جديد لا يعرفه إلّا الذي يناله» (رؤ ٢: ١٧). فالمنّ يسمّى الطعام الملائكي (مز ٧٨: ٢٥: «فأكل الانسان خبز الأقوياء (الملائكة) وأرسل إليهم زاداً حتى شبعوا»). إن التقليد الراباني اعتبر أن الله خلق المنّ منذ بدء

الخليقة، ولكنّ المنّ اختفى مع اختفاء تابوت العهد، وفي الأزمنة الاسكاتولوجيّة، سيعيده النبيّ إيليا في مجيئه الثاني إلى إسرائيل (مخيلتا خروج ١٦: ٣٢). كما تتحدّث نصوص يهوديّة أخرى عن مهمّة المسيح العتيد، فكما ان موسى، الفادي الأول، أمطر المنّ في البريّة، كذلك سيفعل المسيح، الفادي الثاني، عند مجيئه: سيظهر معه من جديد المنّ الخفيّ.

وهذا ما أكّده يسوع في إنجيل يوحنا الفصل السادس: «أنا خبز الحياة... فقد نزلت من السماء» (يو ٦: ٣٥ ـ ٣٨). هذا المنّ الخفيّ الذي ظهر من جديد، هو يسوع المسيح الحاضر أبداً في سرّ الافخارستيا كعربون للحياة الأبديّة: «أنا خبز الحياة... من يأكل من هذا الخبز يحيَ إلى الأبد» (يو ٦: ٤٨ ـ ٥١).

أما عبارة «الاسم الجديد» (رؤ ٢: ١٧) فلا تُفهم إلّا على ضوء الفصل ١٩، حيث الفارس الأمين الصادق يحمل على رأسه إكليلاً مكتوباً عليه إسم: كلمة الله. وعلى ردائه وفخذه اسم مكتوب: ملك الملوك وربّ الأرباب، وهذا الاسم يحمله بدورهم المختارون (رؤ ٢٢: ١٤) والـ ١٤٤٠٠٠ الذين يضعون إسم الحمل على جباههم (رؤ ١٤: ١). وقبالة الذين يحملون هذا الإسم، يقف الذين يحملون على جباههم إسم الوحش (١٤: ١١) ورقمه (١٣: ١٧) والذين ينتمون روحاً وجسداً إلى بابل الزانية العظيمة. هنا تبرز المواجهة والتحدي بين إعلان الإيمان بيسوع المسيح والسجود له وبين عبادة القيصر الروماني وآلهته.

وهكذا فالغالب يُعطى اسماً جديداً: الربّ المخلّص. ومتى يُعطى هذا الإسم؟ في العماد حيث تتمّ الولادة الجديدة باسم يسوع ويُعطى المعمّد اسماً جديداً (راجع أعمال الرسل). وهذا ما تأكّده «موشّحات سليمان» فتقول: «طبع المسيح على جباه المؤمنين إسمه» (نشيد ٤٢: ٢٥). باختصار، الغالب في (رؤ ٢: ١٧) يُعطى المنّ الخفيّ في الافخارستيا، والاسم الجديد في المعموديّة، العلامة الفارقة التي تميّزه عن عبّاد القيصر.

وينطبق المزمور الثاني (مز ٢: ٨ ـ ٩) على الغالب في كنيسة طياطيره (رؤ ٢: ٢٦ ي): «والغالب... سأوليه... كوكب الصبح».

إن آيات المزمور الثاني (آ ٨ ـ ٩) قد تحقّقت في الزمن المسيحاوي في شخص

يسوع المسيح، إذ أعطي له السلطان أن يرعى الأمم. ولكن الجديد ههنا، أن الغالب يشارك يسوع في هذا السلطان كما تقول الآية: «سأوليه سلطاناً... كما أنا أيضاً تلقيت سلطاناً من أبي». فالغالب الذي سار درب يسوع، درب الألم والموت، سينتصر مثله ويشاركه في الميراث والسلطان وهذه المشاركة تتمّ بواسطة الأسرار الإلهيّة في الكنيسة. وكوكب الصبح (رؤ ٢٢: ١٦) يشير إلى المسيح كما جاء في نبوءة بلعام (عد ٢٤: ١٧) وهو يُعطي ذاته في الافخارستيا.

إن كوكب الصبح يرمز في اليهوديّة إلى المسيح المنتظر، ويسوع في سفر الرؤيا يقول: «أنا فرع من داود وذريّته، والكوكب الزاهر في الصباح» (٢٢: ١٦). إذا كان الكوكب يرمز إلى المسيح، فكيف يستطيع يسوع أن يقول: «سأوليه كوكب الصبح»؟ نرى هنا، أن يسوع يقدّم ذاته كلّها للغالب. والمؤمن الذي اشترك في موت وانتصار الربّ، يقبل يسوع ويحيا معه إلى الأبد. هذا ما قاله يسوع في إنجيل يوحنا: «من أكل جسدي وشرب دمي... يثبت فيّ وأنا فيه» (يو ٦: ٥٦ ي). فالغالب ينال كوكب الصبح، يسوع الحاضر أبداً في سرّ الافخارستيا.

أما «الثوب الأبيض» المعطى لكنيسة سرديس (رؤ ٣: ٤ ـ ٥)، فيدلّ على العماد كصورة عن الخلاص الذي يهيّئه الربّ لأخصّائه أي: الخلاص النهائي (٦: ١١). ففي «الكتاب الأول لأخنوخ» (٦٢: ١٥ ي؛ ١٠٨: ١٠ ي) يرى صاحب الرؤيا أن المختارين القائمين من بين الأموات يرتدون ثياب المجد التي هي ثياب الحياة.

والكتاب الثاني لأخنوخ، يتحدّث عن بطل هذا الكتاب بأنه صعد إلى السماء تاركاً ثيابه الأرضيّة، ولبس ثياب مجد الربّ، أي أن أخنوخ صار مشابهاً للملائكة. وكتاب عزرا الرابع (٢: ٣٩ و٤٥) يتحدّث عن رجال تركوا أرديتهم المائتة ولبسوا ثياباً ساطعة وغير فانية تقبّلوها من يد الربّ. و«موشحات سليمان» تقول: «ولبست ثوب روحك وخلعت عني ثياب الجسد» (٢٥: ٨). كل هذه النصوص تؤكّد بأن «الثوب الأبيض» يرمز إلى النقاء والانتصار اللذين أحرزهما المؤمن في سرّ المعموديّة، فالثوب الأبيض هو الواقع الأخير للمختار، وهو واقع الانتصار والغلبة.

ونجد في كنيسة فيلادلفيا (رؤ ٣: ١٢) أن إعطاء الإسم الجديد يجعل من الغالب عموداً في هيكل الربّ، مواطناً لأورشليم الجديدة. والمختارون هم مواطنو هذه المدينة والعبّاد الحقيقيون وأسماؤهم كتبت على أعمدة الهيكل الجديد، والهيكل هو الربّ والحمل (رؤ ٢١: ٢٢). هذا الاسم الجديد يحصل عليه المؤمن يوم عماده.

وأخيراً إن العطيّة الموعود بها لكنيسة اللاذقيّة (٣: ٢٠ ـ ٢١): «ها إني أقف على الباب وأقرع. إن يسمع أحد صوتي ويفتح الباب، أدخل إليه وأتعشّى معه ويتعشّى معي. الظافر أعطيه أن يجلس معي على عرشي...». هذه الصورة تذكّرنا بمقطع من نشيد الأناشيد: «صوت حبيبي يقرع: إفتحي لي يا خليلتي» (٥: ٢).

ففي الليتورجيّا الفصحيّة في الكنيسة الأولى، كانت الجماعة المسيحيّة تنتظر عودة الربّ في نهاية الأزمنة، تنتظر مجيئه ليدقّ على الباب، فيدخل ويتعشّى معها العشاء السريّ (إن حضور المسيح الحاليّ في الافخارستيا وفي الجماعة المؤمنة المصليّة، مقدمة لحضوره النهيوي الكامل في العالم أجمع). فالافخارستيا تعلن مجيئه وحضوره في قلب الجماعة كما يقول بولس: «كل مرّة تأكلون هذا الخبز وتشربون هذه الكأس تخبرون بموت الربّ إلى أن يأتي» (١ كور ١١: ٢٦). فالربّ يسوع لا ينفكّ يطرق بنعمته كل باب، لكنه لا يدخل عنوة، برغم أن في يده مفتاح جميع القلوب، بل ينتظر في الخارج الجواب، إلى يوم الحساب.

ماذا نستخلص؟ إن الجماعة المسيحيّة الأولى هي كنيسة مسافرة مع المسيح في عالم تضربه عواصف الاضطهادات، ولكن الكنيسة قويّة، لأن الربّ المنتصر على الموت حاضر فيها إلى الأبد، خاصة في الافخارستيا واللقاءات الليتورجيّة. فالمؤمن الذي ترك «حبّه الأول» وبدأ يتكيّف مع الظروف ويقاسم حياة العالم الذي يحيط به، فإن أمامه فرصة ذهبيّة ليتوب ويتقوى وينال العطايا المعدّة له، لأن المسيح هو سيّد التاريخ: «يمسك بيمينه الكواكب السبعة ويمشي بين منائر الذهب السبع» (٢: ١) وهو الحاضر والفاعل وسط جماعته، إبن الله الأزليّ الذي مات وقام بالمجد، فأمامه تنهار وتزول قوى هذا العالم وأباطرته.

فالرسائل إلى الكنائس السبع، تنقل لنا تقاليد وعادات ليتورجيّة قديمة أخذت

بها الكنيسة الأولى ونقلها إلينا صاحب الرؤيا بشكل عطايا خلاصيّة يُغدقها الربّ يسوع على الغالبين الذين ما تدنّسوا بعبادة آلهة الحجر وأباطرة البشر.

٣ ـ العبادة الليتورجيّة في (ف ٤ ـ ٥)

لقد كانت رؤيا ابن الإنسان (رؤ ١ : ٩ ـ ٢٠) مقدمة لما يوحيه الله إلى كنيسته في شأن علاقتها به (ف ٢ ـ ٣)، كذلك رؤيا الله (ف ٤) ورؤيا الحمل (ف ٥)، هما مقدّمة لما يوحيه الله إلى كنيسته في شأن علاقتها بشعب العهد القديم (ف ٦ ـ ١١)، وبالعالم الوثنيّ والبشريّة جمعاء (ف ١٢ ـ ٢٢). وهكذا ينظر الكاتب إلى التاريخ بأسره إنطلاقاً من وحي الله إليه.

يقول صاحب الرؤيا: «بعد ذلك رأيت وإذا بابٌ في السماء مفتوح... وإذا عرشٌ في السماء منصوب» (رؤ ٤ : ١ ـ ٢). هذه المقدمة لـ(ف ٤ ـ ٥) تتحدّث عن الليتورجيّا حول العرش. فعوض الذبائح والتقادم اليهوديّة، في يوم السبت، ويوم رأس الشهر، يطالعنا الكاتب بليتورجيّا مسيحيّة، في يوم الأحد. حول العرش الإلهيّ وحول الحمل المذبوح، المسيح الحيّ القائم. باب السماء المفتوح، والصوت الداعي يوحنا إلى الصعود، دليل على أن البادرة هي من الله الذي يرفع الإنسان إلى معرفة أسراره، وعلى الإنسان أن يطيع ويلبّي دعوة الله.

إذاً مع الفصل ٤ (رؤيا الله على العرش) تتغيّر الأمور كلياً، فتنفتح السماء وتبدأ الرؤى تتتابع حتى نهاية السفر. ونتساءل هل هذه الرؤى تعطي بعض المعلومات عن حياة الكنيسة؟ يبدو أن الليتورجيّا السماويّة التي تخدمها الأجناد السماويّة هي صورة عن العبادة الإلهيّة التي ترفعها الكنيسة إلى الله على أيد البشر.

فالفصلان (ف ٤ ـ ٥) يؤلّفان وحدة أدبيّة واحدة ويشكّلان مدخلاً إلى سلسلة الختوم السبعة والأبواق السبعة والرؤى السبعة، كما يقدّمان لنا الكتاب المختوم الذي سيفضّ الحمل أختامه ويكشف لنا أسراره وخفاياه.

فوق عروش الملوك والأباطرة، هناك عرش الله، ونجد جماعتين تعبدانه:

أ ـ الجماعة الأولى أي الشيوخ الـ ٢٤

من هم هؤلاء الشيوخ؟ إنهم بشر ممجّدين وليسوا بملائكة وذلك لأعتبارات كثيرة:

١ ـ يجلس الشيوخ على العروش، وهذا ما لا نلحظه في الكتاب المقدس بالنسبة للملائكة. فالمسيحيون الأولون كانوا يعتبرون أن المؤمنين الصادقين سيجلسون على العروش في السماء (مت ١٩: ٢٨: «فقال لهم يسوع: الحقّ أقول لكم: أنتم الذين تبعتموني، متى جلس ابن الإنسان على عرش مجده... تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً لتدينوا اسباط إسرائيل الإثني عشر» (راجع رؤ ١: ١٦؛ و٥: ١٠).

٢ ـ الملابس البيضاء التي يلبسها الشيوخ، هي نصيب المختارين بحسب رؤيا يوحنا.

٣ ـ لا يتكلّم الكتاب المقدس إطلاقاً عن الملائكة بأنها تحمل التيجان على رؤوسها.

٤ ـ إسم الشيوخ، والعهد الجديد لا يطلق هذه التسميّة إلّا على شيوخ المجامع والجماعات المسيحيّة.

إن سفر الرؤيا يضع أمامنا مجلساً من الشيوخ له دوره الأساسيّ في الليتورجيّا السماويّة (ف ٤ ـ ٥). هذا المجلس ليس مجلساً للشيوخ، ولا مجلساً استشارياً أو سياسياً، بل مجلس خدّام العبادة الإلهيّة فقط. هل هم كهنة سماويّون يمثّلون الكنيسة الأرضيّة لدى الله؟ هذا الرأي يصطدم ببعض العراقيل الكتابيّة (راجع رؤ ٧: ٩ ـ ١٧؛ ١٥: ٢ ـ ٤) فهؤلاء الشيوخ يتميّزون عن جماعة المختارين وعن الكنيسة، خطيبة الحمل (رؤ ١٩: ٥ ـ ٩). إذاً، ليسوا مختاري العهد الجديد بل هم آباء العهد القديم وقديسوه والذين يرى فيهم المسيحيون آباءهم في الإيمان (عب ١١ ـ ١٢). هم ٢٤ شيخاً، وهذا العدد هو عدد فرق الكهنة في تنظيم العبادة (١ أخ ٢٤: ٣ ـ ١٩؛ ٢٥: ٦ ـ ٣١). فالعبارات التي يطلقها هؤلاء الشيوخ في احتفالاتهم الليتورجيّا، تعبّر عن إيمانهم. فعندما يحيّون المسيح، يستعملون ألفاظاً مسيحانيّة معروفة ومأخوذة من العهد القديم (رؤ ٥: ٥)، وعندما يرفعون الصلاة

إلى الله، يتوجّهون إليه كخالق، وهذا دليل على أن الشيوخ يعبرّون عن إيمان شعب الله في العهد القديم.

ب ـ الجماعة الثانية:

تتألّف من الأحياء الأربعة (الحيوانات الحيّة كما في صورة مستعارة من حزقيال ١: ٥) ذات الأجنحة الملأى عيوناً من حولها ومن داخلها (دليل على المعرفة الشاملة والعناية الكاملة) (رؤ ٤: ٧). وهؤلاء الأحياء هم الأقرب إلى الله بعد الحمل: ترمز إلى قدرة الله المطلقة على الكون، وتمثّل عمل الله الخالق في زوايا الكون الأربع (رؤ ٧: ١) (الأحياء تدلّ على الكون كلّه: الثور يمثّل الحيوان الداجن، الأسد الحيوان المفترس، النسر الطيور، الإنسان البشريّة كلها). وهذا دليل على أن السماء ليست منفصلة عن الأرض، بل هي حاضرة وسط عالمنا المخلوق. ثم يكمّل الكاتب هنا رؤيا حزقيال برؤيا أشعيا: يجعل لكل واحدٍ من الأحياء الأربعة ستة أجنحة (أش ٦: ٢) بدل أربعة (حز ١: ٦). وهم لا يحملون العرش (حز ١: ١٦) بل ينشدون حول العرش تقديسات ثالوثيّة (أش ٦: ٣) دخلت في الليتورجيّا اليهوديّة ثم المسيحيّة. عبادة الله في السماء هي عبادة تسبيح وسجود وشكران، أسمى مثال لعبادة الله على الأرض.

٤ ـ العبادة الليتورجيّة تسبيق للملكوت

الاحتفال الليتورجي الذي نقرأه في (ف ٤) يرتبط بالخلق. أما النهاية فتقدّم فعل شكر إلى الله الخالق: «يا ربّنا وإلهنا لك يحقّ المجد والإكرام والقدرة، لأنك خلقت الأشياء كلّها وهي بمشيئتك كانت ووجدت»(٤: ١١).

إن المشهد مأخوذ من حزقيال (حز ١)، يكفي المقابلة بين (حز ١). وبين (رؤ ٤: ١ ـ ٨). ونحن نعلم أن اليهوديّة في زمن يوحنا فسّرت نصّ حزقيال هذا بالنسبة إلى الخليقة بأحيائها الأربعة الذين يشكّلون عناصرها الأساسيّة (يجب أن يُفسّر رؤ: ١ ـ ٨ بالمعنى نفسه، وخاتمة الفصل ٤ تؤكّد ذلك).

وتتوسّع الصلاة، لأن أول واجب الكائنات السماويّة هو الليتورجيّا، وتمجيد الله الدائم: «وهم لا يبرحون نهاراً وليلاً ينشدون...» (رؤ ٤: ٨). فتنتقل الرؤيا

من مرحلة الجماد إلى مرحلة الحركة والليتورجيّا. وهذا العمل الليتورجيّ سيدور حول العرش وحول الجالس عليه. فالشيوخ يطرحون أكاليلهم أمامه اعترافاً منهم بأن سلطانهم مستمدّ منه. والأحياء الأربعة تنشد له التقديسات الثالوثيّة. هذا العمل الليتورجيّ ليس حدثاً عابراً، إنه عمل متواصل يتكرّر بشكل مستمرّ: «وهم لا يبرحون نهاراً وليلاً ينشدون...» (رؤ ٤: ٨)، لا ينقطع تسبيحهم ليلاً ونهاراً. ويسير النشيد بين جوقين: بين الأحياء والشيوخ. فالأحياء يقودون الصلاة فيؤدّون المجد والإكرام والشكر للحيّ الجالس على العرش، فيركع الأربعة والعشرون شيخاً (رؤ ٤: ١٠) ويتوجّهون بعبادتهم إلى الخالق، إلى الله الذي يقود التاريخ: «لأنك أنت خلقت كلّ شيء، وبمشيئتك كل شيء كان وخُلق» (رؤ ٤: ١١). ويعبرّون عن سجودهم حين يطرحون أكاليلهم عند قدميه بحيث لا يبقى إلّا الجالس على العرش.

أما مضمون الليتورجيّا، فنرى أن بين البداية والنهاية في الفصل الرابع، يوجد نشيد التقديسات الثالوثيّة: «قدوس، قدوس، قدوس الربّ الإله القدير الذي كان والكائن والذي يأتي» (رؤ ٤: ٨).

هذا النشيد «القديش، قدوس» المستوحى من أشعيا (٦: ٣) نجده في أقدم الليتورجيّات المسيحيّة المعروفة، ولقد احتفظ الفصل الثامن من كتاب «الدساتير الرسوليّة» (دوّن في القرن الرابع) بنصوص ليتورجيّة قديمة، ولقد جاءت الصلاة الكبرى على النحو التالي:

١ ـ مديح للآب والابن من أجل الخلق.
٢ ـ الخلق
٣ ـ آدم
٤ ـ تاريخ شعب اسرائيل
٥ ـ مقدّمة قدوس ثم قدوس.

ليس هذا الرسم اختراعاً مسيحياً، بل نجد له أثراً في الليتورجيّا اليهوديّة، خصوصاً في العبادة الصباحيّة. فالنصّ الليتورجيّ اليهوديّ المبني على أشعيا ٦: ٣، يحمل إسم «قِدوشة»، ونميّز ثلاث «قدوشات»:

ي ص ر (ياصر كلمة عبريّة تعني الخالق): تبارك الله الخالق، نباركه من أجل عطيّة الشريعة.

ش م ع ي ش ر ا ل (إسمع يا إسرائيل... تث ٦: ٤ ي)

ج ا ل ه (جألة كلمة عبريّة تعني الفداء): نبارك الربّ من أجل الفداء الذي أعلن عنه بطريقة نبويّة بحدث الخروج من مصر. فالمؤمن يبارك الربّ الخالق ويعلن إسمه القدوس.

نستخلص من هذا كله، أن الليتورجيّا اليهوديّة تربط بين «القدوشة ـ قدوس» وبين عبارة الله الخالق. والليتورجيّا المسيحيّة الأولى تتبع هذا النموذج اليهوديّ كما جاء في «الدساتير الرسوليّة. فنستنتج أن العمل الليتورجيّ في (رؤ ٤) هو نقطة وصل بين الليتورجيّا اليهوديّة والليتورجيّا المسيحيّة اللاحقة التي عملت بها الجماعات المسيحيّة الأولى.

ويشكّل الفصل ٥ (رؤيا الحمل المذبوح) وحدة أدبيّة مع الفصل ٤. ففي الفصل السابق (فصل ٤) رأينا أن الليتورجيّا المسيحيّة هي مشاركة في الليتورجيّة السماويّة الأبديّة واستباق للملكوت. أما في الفصل الخامس فسنكتشف كيف أن المسيح يحقّق العهد القديم ويقدّم وحيه الحقيقيّ والنهائي. وسنرى فيه بقايا ليتورجيّة مارستها الكنيسة في نهاية القرن الأول. وأوّل عنصر هو الكتاب السّري (Biblion) الذي يحتلّ مكاناً رئيسياً في هذا الفصل: «ورأيت بيمين الجالس على العرش كتاباً مخطوطاً Biblionمن الداخل والخارج، مختوماً بسبعة ختوم» (٥: ١). إن كلمةBiblion لا تعني كتاباً أو رسالة أو صكاً، بل وثيقة كاملة، لا يسع أحداً أن يزيد عليها حرفاً واحداً. كُتبت فيها، على ورق بردّي، إرادة الله القدّوسة، وتصميمه الخلاصيّ لشعبه وللعالم في جميع أحداث التاريخ. يقول علماء الكتاب المقدس، إنه العهد القديم وقد كان فهمه مغلقاً، إلى أن فضّ ختومه المسيح. هذا الكتاب المخطوط، لا يقدر أحد أن يفتحه إلّا الحمل فيقرأ ما كُتب عليه في الداخل وفي الخارج، أي الواضح والخفيّ. إنه كتاب مُحكم الختم: «مختوماً بسبعة ختوم» (رؤ ٥: ١١)، وواحد يفضّ أختامه: «هوذا الأسد من سبط يهوذا، أصل داود، قد ظفر، ليفتح الكتاب وختومه السبعة» (رؤ ٥: ٥). هذا ما قاله لوقا عن يسوع

في حادثة تلميذي عمّاوس: «فبدأ من موسى وجميع الأنبياء يفسّر لهما في جميع الكتب ما يختصّ به» (لو ٢٤: ٢٧؛ ٢ كور ٣: ١٤).

هذا الكتاب المخطوط، قد فضّ ختومه يسوع بموته وقيامته: «والغالب سأهب له أن يجلس معي على عرشي، كما غلبت أنا أيضاً فجلست مع أبي على عرشه» (رؤ ٣: ٢١). ففي الحدث الفصحي فُضّت أختام النبوءات واكتمل تدبير الله الخلاصيّ. هذا ما يدعونا إلى التأمّل في صورة «الحمل الواقف كأنه ذبيح» (رؤ ٥: ٦).

فكلمة «حمل»(arnion) ترد مرة واحدة في إنجيل يوحنا (٢١: ١٥) وفي رؤيا ٢٩ مرة، ٢٨ مرة للمسيح ومرة واحدة للوحش مقلداً المسيح (رؤ ١٣: ١١). التشديد على أن «الحمل واقف» إشارة إلى النصر الذي أحرزه ولكنه يحمل في جسده جرحاً، إنه مذبوح، فهو الحمل الفصحي (خر ١٢: ٦). ولكن هذا الحمل ليس ضعيفاً بل له سبعة قرون. نحن هنا أمام تعبير عن ملء القدرة الإلهيّة (تث ٣٣: ١٧؛ دا ٧: ٧ ـ ٨، ٢٤). وهذه القرون تدلّ على أن الحمل هو «الكرّاز» قائد القطيع وحاميه من الوحش (١٧: ١٤)، وله سبعة أعين، كتعبير على ملء المعرفة الإلهيّة (زك ٤: ١٠).

هذا الحمل القائم والمذبوح له القدرة أن يفتح الأختام السبعة لأنه افتدى لله بدمه أناساً من كل قبيلة ولسان وشعب وأمّة (رؤ ٥: ٩). إن الفعل اليونانيّ(Exagorazein) = افتدى (رؤ ٥: ٩) هو فعل بولسي (١ كور ٦: ٢٠؛ ٧: ٢٣؛ غلا ٣: ١٣؛ ٤: ١٥) ويعني التحرّر من العبوديّة. تستعمله الرؤيا ثلاث مرات (٥: ٩؛ ١٤: ٣ ـ ٤) في أناشيدٍ تعظّم سرّ الفداء والنصر، وهذا ما يذكّرنا بنشيد النصر الذي أنشده موسى بعد عبور بحر الأحمر (خر ١٥). لهذا تحتفل (رؤ ٥: ٩)، على مثال الليتورجيّا اليهوديّة، بالفداء الذي تمّ بواسطة الحمل الذي يقرّ المسيحيون أنه يختلف عن الحمل الفصحيّ، لأن ذبحه لم يكن النهاية الأخيرة، والفادي يقوم منتصباً حيّاً ناهضاً من الموت.

فالفداء جاء إلى البشريّة بالتجسّد والصلب والقيامة، ولهذا، فيسوع وحده يفتح الكتاب المختوم. ولا يكتفي بكشف مقاصد الله الأزليّة، بل يتمّها في شخصه الإلهي.

لهذا نرى (رؤ ٤ ـ ٥) تقدّم يسوع كذلك الذي أتمّ في شخصه كل الآمال المسيحانيّة في العهد القديم، كما يظهر الطابع الليتورجيّ لهذين الفصلين (٤: ١ ـ ٥: ١٤) ليتورجيّا في السماء وليتورجيّاة في الأرض. فالحمل يشير إلى الحمل الفصحي وموت المسيح وبالتالي إلى سرّ الافخارستيا، والكتاب المخطوط Biblion يشير إلى الكتب المقدسة في الليتورجيّة. فليتورجيّة الكلمة (Biblion)وليتورجيّة تقدمة «الحمل»(arnion) تشكّلان ذروتين في ليتورجيّا افخارستيّة ستنتهي في نهاية الكتاب والنداء الأخير إلى الربّ:

«ماراناتا: تعال أيها الربّ يسوع».

وهكذا يندفع الكون (الأحياء الأربعة) والبشريّة (الشيوخ) مع الملائكة في جوّ عابق بألحان القيثارات ورائحة العطور العذبة (صلوات القديسين) (رؤ ٥: ٨) في احتفال ليتورجيّ ونشيد لا ينتهي: « للجالس على العرش، وللحمل البركة والكرامة والمجد والعزّة لدهر الدهور» (رؤ ٥: ١٣).

إنه احتفال ليتورجيّ دائم، يُنصّب الحمل ملكاً إلى الأبد. فحين يرى المسيحيون هذه العبادة السماويّة، يكتشفون البعد الحقيقيّ للعبادة التي يحتفلون بها ويفهمون أن ليتورجيّتهم هي تسبيق على الأرض للملكوت ولنهاية الزمن.

٥ ـ تعال أيها الربّ يسوع، ماراناتا

بهذه العبارة الليتورجيّة ينتهي سفر الرؤيا: «تعال أيها الربّ يسوع، فلتكن نعمة ربّنا يسوع معكم أجمعين» (رؤ ٢٢: ٢٠ ـ ٢١).

«ماراناتا» عبارة آراميّة تختم سفر الرؤيا وتوجد أيضاً في (١ كور ١٦: ٢٢): «إن كان أحد لا يحبّ الربّ فاللعنة عليه. ماراناتا، ولتكن نعمة الربّ يسوع معكم... آمين».

لماذا وُجدت هذه الكلمة الآراميّة في رسالة وجّهها بولس إلى جماعة يونانيّة؟ لماذا لم يترجمها الرسول: تعال أيها الربّ؟ يظهر أن هذه الكلمة كانت معروفة لدى جماعة كورنتس، ولذا، لم ير بولس من حاجة إلى ترجمتها ولكن كيف وصلت كلمة

«ماراناتا» إلى الجماعة اليونانيّة؟ لقد انتقلت إليهم عبر الليتورجيّا (كما انتقلت كلمات عبريّة ويونانيّة إلى الجماعات المسيحيّة مثل: هللويا، كيرياليسون، آمين...).

إن كتاب «الديداكه» (أو تعليم الرسل الاثني عشر الذي يعود إلى بداية القرن الثاني الميلاديّ) يذكر في الفصل العاشر المكرّس للافخارستيا كلمة «ماراناتا»، وفي نهاية صلاة الافخارستيا نقرأ هذا الحوار الليتورجيّ:

المحتفل: لتأت النعمة وليعبر العالم
الجماعة: هوشعنا لابن داود
المحتفل: إذا كان أحدٌ مقدّساً فليقترب وإلّا فليتب.
الجماعة: ماراناتا، آمين.

فانطلاقاً من «الديداكه»نعرف أن «ماراناتا» هي كلمة ليتورجيّة معروفة في الجماعات المسيحيّة ولها مكانتها الرئيسي في الليتورجيّا الافخارستيّة. فنرى هنا تلاقياً بين اللتورجيّا وسفر الرؤيا، فالليتورجيّا الافخارستيّة تعلن، شأنها شأن سفر الرؤيا، أن مجيء المسيح أكيد (اصنعوا هذا لذكري حتى مجيئي).

إن مجيء الربّ في الافخارستيّا هو استباق لمجيئه في نهاية الأزمنة. نجد فيها مخلّصنا يفتح لنا أبواب المدينة المقدسة ويعطينا ثمار شجرة الحياة، ويلتقي الإنسان بالربّ الذي هو مخلّصه وديّانه، فيتقبّل الخيرات الإلهيّة المقدمة له تحت اعراض الخبز والخمر. ولكن الربّ له متطلباته في هذا المجال: فمن يتبعه ينال الغلبة ويُعطى العطايا المذكورة في الرسائل السبعة، ومن لا يتبعه يواجه دينونة تضرب الخاطىء القاسي القلب ويبقى في الخارج واقفاً على الباب كالعذارى الجاهلات.

من هنا نفهم ما كتبه بولس إلى أهل كورنتس: «فمن أكل خبز الربّ وشرب كأسه وما كان إهلاً لها، خطىء إلى جسد الربّ ودمه. فليمتحن كل واحد نفسه، قبل أن يأكل من هذا الخبز ويشرب من هذه الكأس. لأن من أكل وشرب وهو لا يرعى جسد الربّ، أكل وشرب دينونة على نفسه» (١ كور ١١: ٢٧ ـ ٢٩).

والليتورجيّا في «الديداكه» تساعدنا على فهم نصّ القديس بولس في (١ كور ١٦: ٢٢). فعبارة التهديد التي نقرأها: «عليه اللعنة» تصبح حسب الديداكه: «إن

كان أحد يحبّ الربّ فليأت، إن كان أحد لا يحبّ الربّ فاللعنة عليه! ماراناتا».

وهكذا نعرف أن وجود «ماراناتا» في الرؤيا يدلّ على تأثير ليتورجيّ مهمّ. فهذه الليتورجيّا دوّنت في الديداكه وعُرفت في سفر الرؤيا وردّدتها الجماعات البولسيّة، فهي إذاً من أقدم النصوص الليتورجيّة المسيحيّة وقد ردّدتها أيضاً الجماعة اليوحناويّة في ليتورجيّتها وأصبحت كلمة ليتورجيّة مألوفة لدى صاحب الرؤيا وجماعته.

٦ ـ الخلاصة

كتاب الرؤيا، كتاب العبادة والسجود، كتاب البخور والأناشيد، كتاب الأبواق والقيثارات، كتاب الشموع المنيرة والابتهالات، هو رجع صدى بعيد لليتورجيّا مسيحيّة عاشتها الكنيسة الأولى وتأمّلت ملياً بمعانيها وأبعادها اللاهوتيّة.

كتاب يبدأ في يوم أحد (يوم الربّ) مع حوار ليتورجيّ (رؤ ١: ٤ ـ ٨)، ثم تظهر لنا الرؤية الأولى وتبيّن لنا العبادة في السماء كمثال للعبادة الحقّة على الأرض، ومن بعدها تتوالى تلميحات عديدة إلى احتفالات بالصلاة وأناشيد المدح والشكر، وحركات ليتورجيّة معروفة: الوقوف، السجود، الجلوس، تقديم البخور، ألحان آلات موسيقيّة، شموع مضيئة، ثياب ليتورجيّة... كل هذا ينتهي في ليتورجيّا إفخارستيّة: ليتورجيّة «الكلمة»(Biblion) ، ليتورجيّة تقدمة «الحمل». فبين المجيء النهيوي للمسيح والليتورجيّة في الكنيسة نجد رباطاً وثيقاً. فالاحتفالات الليتورجيّة هي أوقات يُعلن فيها عمل الخلاص الكامل ويتوضّح ويتحقّق بانتظار تجليّه الشامل في الساعة التي يريدها الربّ.

فإلى هؤلاء المسيحيّين المهدّدين من كلّ جهّة في عالم يعاديهم، قدّمت رؤيا يوحنا اليقين العظيم الذي أعلنه الإنجيل: لقد جاء يسوع، إنه حاضر بيننا، تستطيعون أن تنتظروه بثقة، يمكنكم أن تلتقونه كما سيكون يوم ظهوره الأخير.

فشعائر العبادة تذكّرنا به، والليتورجيّا تحتفل به، والأسرار تعطينا العلامات الحسّية عن حضوره بيننا. فالليتورجيّا هي تسبيق للملكوت وتبسيط للنهاية وللدينونة. من هنا نرى العلاقة العميقة السريّة بين هذين الفنين الأدبيين المختلفين:

الفن الرؤيوي والفن الليتورجيّ. كلاهما يتكلّمان على النهاية التي هي يسوع المسيح.

فسفر الرؤيا هو سفر انتظار النهاية، الانتظار أكيد مفرح، لأن الذي ننتظره هو صادق في مواعيده، إنه الربّ الحيّ والحاضر، إنه النهاية الأكيدة.

سيأتي عمّا قريب ونلتقي به. هذا ما تعلّمنا الليتورجيّا في سفر الرؤيا التي تصرخ نحو هذه النهاية: ماراناتا، تعال يا ربّ، تلك هي صلاة الكنيسة التي تتوجّه إلى ربّها متأكّدة أنه سيستجيب نداءها، ويأتي سريعاً ويحوّل الكون كلّه إلى نشيد جديد، إلى عبارة جديدة وليتورجيّا جديدة، إلى نغم جديد لا يعرف لحناً إلّا لحن السماء، فتنهار مملكة الأباطرة وعُبّادها أمام أورشليم السماويّة ويصبح الكون كلّه: «سماء جديدة وأرضاً جديدة، لأن السماء الأولى والأرض الأولى قد زالتا» (رؤ ٢١: ٢)، ماراناتا، تعال أيها الربّ يسوع.